سورة الزلزلة

مدنية وقيل: مكية، وآياتها ثمانٍ
[نزلت بعد النساء]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾

«زلزالها» قرئ: بكسر الزاي وفتحها؛ فالمكسور: مصدر، والمفتوح: اسم؛ وليس في الأبنية فعلال بالفتح إلاّ في المضاعف. فإن قلت: ما معنى زلزالها بالإضافة؟ قلت: معناه زلزالها الذي تستوجبه في الحكمة وهو مشيئة الله، وهو الزلزال الشديد الذي ليس بعده. ونحوه قولك: أكرم التقيّ إكرامه، وأهن الفاسق إهانته، تريد: ما يستوجبانه من الإكرام والإهانة أو زلزالها كله وجميع ما هو ممكن منه. الأثقال: جمع[1] ثقل. وهو متاع البيت، وتحمل أثقالكم جعل ما في جوفها من الدفائن أثقالاً لها ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ زلزلت هذه الزلزلة الشديدة ولفظت ما في بطنها؛ وذلك عند النفخة الثانية حين تزلزل وتلفظ أمواتها أحياء، فيقولون ذلك لما يبهرهم من الأمر الفظيع، كما يقولون: ﴿بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا﴾ [يس: ٥٢]. وقيل: هذا قول الكافر؛ لأنه كان لا يؤمن بالبعث؛ فأما المؤمن فيقول: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ فإن قلت: ما معنى تحديث الأرض والإيحاء لها؟ قلت: هو مجاز عن إحداث الله تعالى فيها من الأحوال ما يقوم مقام التحديث بالنسيان، حتى ينظر من يقول ما لها إلى تلك الأحوال، فيعلم لم زلزلت ولم لفظت الأموات؟ وأنّ هذا ما كانت الأنبياء ينذرونه ويحذرون منه. وقيل: ينطقها الله على

---

(١) قوله: «جمع ثقل وهو متاع» في الصحاح «الثقل»: واحد الأثقال، مثل حمل وأحمال. والثقل ـ بالتحريك متاع المسافر وحشمه. (ع)

الحقيقة. وتخبر بما عمل عليها من خير وشرّ. وروي عن رسول الله ﷺ: «تشهد على كل أحد بما عمل على ظهرها» (١٧٨٦). فإن قلت: (إذا، ويومئذ): ما ناصبهما؟ قلت: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من (إذا)، وناصبهما ﴿تُحَدِّثُ﴾. ويجوز أن ينتصب (إذا) بمضمر، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بتحدّث. فإن قلت: أين مفعولا (تحدث)؟ قلت: قد حذف أوّلهما، والثاني: أخبارها، وأصله تحدث الخلق أخبارها؛ إلاّ أن المقصود ذكر تحديثها الأخبار لا ذكر الخلق تعظيمًا لليوم. فإن قلت: بم تعلقت الباء في قوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ﴾؟ قلت: بتحدّث، معناه: تحدّث أخبارها بسبب إيحاء ربك لها، وأمره إياها بالتحديث. ويجوز أن يكون المعنى: يومئذ تحدث بتحديث أنّ ربك أوحى لها أخبارها، على أن تحديثها بأن ربك أوحى لها: تحديث بأخبارها، كما تقول: نصحتني كل نصيحة، بأن نصحتني في الدين.[1] ويجوز أن يكون ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ﴾ بدلاً من ﴿أَخْبَارَهَا﴾ كأنه قيل: يومئذ تحدّث

١٧٨٦ ـ تقدم في سورة الأنبياء.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم من رواية ابن أيوب عن يحيى، عن أبي سليمان المنقري عن أبي هريرة. وسعيد ثقة. وخالفه رشدين بن سعد وهو ضعيف فقال: عن يحيى بن أبي سليمان عن أبي حازم بالسندين المذكورين عن أنس بن مالك. وأخرجه ابن مردويه. انتهى.

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وهو كلام فيه عفش يتنزه القرآن عنه. قلت: وأي عفش فيه مع صحته وفصاحته؟ ولكن لما طال تقديره من جهة إفادته هذا المعنى الحسن. جعله عفشًا وحاشاه.
ثم قال الزمخشري ويجوز أن يكون «بأن ربك» بدلاً من «أخبارها» كأنه قيل: يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها؛ لأنك تقول: حدثته كذا وحدثته بكذا.
قال الشيخ: وإذا كان الفعل يتعدى تارة بحرف جر؛ وتارة يتعدى بنفسه، وحرف الجر ليس بزائد. فلا يجوز في تابعه إلا الموافقة في الإعراب. فلا يجوز: استغفرت الذنب العظيم بنصب الذنب وجر العظيم، لجواز أنك تقول: من الذنب، ولا أخبرت زيدًا الرجال الكرام بنصب الرجال، وخفض الكرام، وكذلك لا يجوز أن تقول: استغفرت من الذنب العظيم بنصب العظيم، وكذلك في أخبرت. فلو كان حرف الجر زائدًا جاز الاتباع على موضع الاسم بشروطه المحررة في علم النحو تقول: ما رأيت من رجل عاقلاً لأن من زائدة ومن رجل عاقل على اللفظ، ولا يجوز نصب رجل وجر عاقل على مراعاة جواز دخول من. وإن ورد شيء من ذلك فبابه الشعر انتهى. ولا أدري كيف يلزم الزمشخري ما ألزمه به من جميع المسائل التي ذكرها؟ فإن الزمخشري يقول: إنه هنا بدل من ما قبله. ثم ذكر مسوغ دخول الباء في البدل، وهو أن المبدل منه يجوز دخول الباء عليه. فلو حلّ البدل محلّ المبدل منه ومعه الباء لكان جائزًا لأن العامل يتعدى به، وذكر مسوغًا لخلو المبدل منه من الباء. فقال: لأنك تقول: حدثته كذا، وحدثته بكذا. وأما كونه يمتنع أن تقول: استغفرت الذنب العظيم بنصب الذنب وجر العظيم إلى آخره فليس في كلام الزمخشري شيء منه ألبتة، ونظير ما قاله الزمخشري في باب استغفر أن تقول: استغفرت الله ذنبًا من شتمي زيدًا. فقولك: من شتمي بدل من الذنب، وهذا جاز لا محال. انتهى. الدر المصون.

بأخبارها بأن ربك أوحى لها؛ لأنك تقول: حدّثته كذا وحدثته بكذا، و﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ بمعنى أوحى إليها، وهو مجاز كقوله: ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] قال [من الرجز]:

أَوْحَىٰ لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتِ[1]

وقرأ ابن مسعود: «تنبئ أخبارها». وسعيد بن جبير: تنبئ، بالتخفيف. ٢/ ٢٧٠أ يصدرون عن مخارجهم من القبور إلى الموقف ﴿أَشْتَاتًا﴾ بيض الوجوه آمنين؛ وسود الوجوه فزعين. أو يصدرون عن الموقف أشتاتًا يتفرق بهم طريقا الجنة والنار، ليروا جزاء أعمالهم. وفي قراءة النبيّ ﷺ: «ليروا» بالفتح. وقرأ ابن عباس وزيد بن عليّ: «يره» بالضم. ويحكى أنّ أعرابيًا أخر ﴿خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ فقيل له: قدّمت وأخّرت؛ فقال [من الطويل]:

خُذَا بَطْنَ هَرْشَى أَوْ قَفَاهَا فَإِنَّه كِلاَ جَانِبَيْ هَرْشَى لَهُنَّ طَرِيقُ[2]

والذرّة: النملة الصغيرة، وقيل: الذرّ ما يرى في شعاع الشمس من الهباء. فإن قلت: حسنات الكافر محبطة بالكفر، وسيئات المؤمن معفوّة باجتناب الكبائر، فما معنى الجزاء بمثاقيل الذرّ من الخير والشرّ[3]؟ قلت: المعنى فمن يعمل مثقال ذرّة خيرًا: من فريق السعداء. ومن يعمل مثقال ذرّة شرًا: من فريق الأشقياء؛ لأنه جاء بعد قوله: ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾.

---

(١) تقدم.

(٢) روي أن أعرابيًا أخر قوله تعالى: (خيرًا يره) عما بعده، فقيل: قدمت وأخرت، فضرب ذلك البيت مثلًا. وهرشى ـ كسكرى: ثنية في طريق مكة عند الجحفة، أي: اسلكا أمام تلك الثنية أو خلفها، فإنه أي: الحال والشأن كل من جانبيها طريق للإبل التي تطلبانها، وتكرير لفظ «هرشى» لتقريرها في ذهن السامع خوف غفلته عنها، والمقام كان مقام هداية، فحسن فيه ذلك.
البيت لعقيل في معجم البلدان ٥/ ٣٩٨ (هرش)، ولسان العرب (هرش)، ومقاييس اللغة ١/ ٤٧، ومجمل اللغة ٤/ ٤٧٥، وتاج العروس (هرش)، (أنف).

(٣) قال محمود: «إن قلت حسنات الكافر محبطة بالكفر... إلخ» قال أحمد: السؤال مبني على قاعدتين؛ إحداهما: أن حسنات الكافر محبطة بالكفر، وهذه فيها نظر؛ فإن حسنات الكافر محبطة، أي: لا يثاب عليها ولا ينعم. وأما تخفيف العذاب بسببها، فغير منكر؛ فقد وردت به الأحاديث الصحيحة. وقد ورد أن حاتمًا يخفف الله عنه لكرمه ومعروفه، وورد ذلك في حق غيره كأبي طالب أيضًا، فحينئذ لحسنات الكافر أثر ما في تخفيف العذاب، فيمكن أن يكون المرئي هو ذلك الأثر، والله أعلم. وأما القاعدة الثانية: وهي القول بأن اجتناب الكبائر يوجب تمحيص الصغائر ويكفرها عن المؤمن، فمردود عند أهل السنة؛ فإن الصغائر عندهم حكمها في التكفير في حكم الكبائر: تكفر بأحد أمرين: إما بالتوبة النصوح المقبولة، وإما بالمشيئة لا غير ذلك. وأما اجتناب الكبيرة عندهم فلا يوجب التكفير للصغيرة، فالسؤال المذكور إذًا ساقط عن أهل السنة، ولكن الزمخشري التزم الجواب عنه للزومه على قاعدته الفاسدة؛ والله الموفق.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة إذا زلزلت أربع مرات كان كمن قرأ القرآن كله» (١٧٨٧).

١٧٨٧ ـ ذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٤/ ٢٦٢) وعزاه للثعلبي بإسناد أهل البيت عن علي بن أبي طالب.

وله شاهد من حديث أنس عزاه الزيلعي لابن أبي شيبة في مسنده والبزار.

وينظر حديث فضائل القرآن رقم (٣٤٦).

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي من حديث علي بإسناد أهل البيت، لكنه من رواية أبي القاسم الطائي. وهو ساقط وشاهده عند ابن أبي شيبة والبزار من رواية سلمة بن وردان عن أنس مرفوعًا: إذا زلزلت تعدل ربع القرآن» وأخرجه ابن مردويه والواحدي بأسناديهما إلى أبي بن كعب بلفظ «من قرأ إذا زلزلت أعطي من الأجر كمن قرأ القرآن» انتهى.

obeikandl.com